مجلة الإحياء، المجلد: 22، العدد: 30، جانفي 2022، ص - ص: 431 – 452
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

المصطلح القرآني ودوره في تدقيق المضمون الشرعي
محاولة في تجديد تفهيم القرآن ومدارسته في زمن الكورونا

The Quranic term and its role in checking the legal content
An attempt to renew the understanding of the Qur'an and its study in the time of Corona

د/ محمد لفرم
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس – مكناس المغرب
mh.lafram@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/01/01 تاريخ القبول: 2021/05/10

الملخص:
القرآن فريد، متعدد الأبعاد، ييسر اكتشاف بعض خباياه، وكل نظر، قد يتيح مضامين لا متناهية تناسب كل واقع. وعنوان البحث: "المصطلح القرآني ودوره في تدقيق المضمون الشرعي، محاولة لتجديد تفهيم القرآن في زمن الكورونا، توضيح المفهوم لتحقيق القيمة". ويقترح منهجية تبتغي تفهيم كتاب الله للناس، وهو بذلك بحث وصفي تحليلي، وأهم ما يروم كشفه، أن:
1- عملية التفهيم عملية معقدة تحتاج لتملك جملة من الآليات.
2- النظرة الشمولية تنتج عن تدبر مرتبط بالواقع.
3- مدارسة القرآن تجعل الفهم والتفهيم مترابطتين في تحويل الفهم عن الله إلى سلوك.
الكلمات المفتاحية: الفهم؛ التفهيم؛ التدبر؛ المدارسة؛ الكورونا.

Summary:
The Qur'an is unique, multidimensional, facilitating the discovery of some of its secrets, and each view may offer endless contents that fit every reality. The title of the research: "The Quranic term and its role in scrutinizing the legal content, an attempt to renew the understanding of the Qur'an in the time of the Corona, clarifying the concept to achieve value." He proposes a methodology that seeks to understand the Book of God to people, and by that it is a descriptive and analytical research, and the most important thing that seeks to uncover is that:
1- The process of understanding is a complex process that requires possession of a set of mechanisms.
2- The holistic view results from contemplating reality.
3- Studying the Qur'an makes understanding and understanding interdependent in transforming understanding about God into behavior.
Key words: understanding; understanding; contemplation; study; corona.

المدخل المنهجي

1- مقدمة الدراسة: إن كل من يسعى لتفهيم كتاب الله، مدعو 'لتحديد' نظره في بداية المهمة، و'تجديده' باستمرار، ليتبين 'منهجية توظيف القرآن لمصطلحاته'، فلا ينوب أحدها عن الآخر.

2- أهميتها: وتتجلى في ضرورة الدعوة إلى النظر، باستمرار، في النص القرآني، مع تجديد وتطوير النظر في كتاب الله. وتزداد هذه الأهمية، اليوم، في كون العالم، كله، وقع في حصار وحجر فرضه عليه

فيروس عجيب، يدبر الله به الكون، لحكمة تتطلب النظر الطويل للكشف عنها. ولعل بعضها يتجلى في 'إرجاع الله لعباده إليه حتى يفرون منه إليه'.

3- إشكالها: هل التفرغ في إطار الحجر الصحي سيجعل مضامين النص القرآني تزداد وضوحا بتنزيلها على الواقع المعيش؟ وهل زمن الكورونا حافز لتعديل المنهجية في النظر القرآني؟

4- أهدافها:

- رسم خارطة طريق تقريبية للتحول من مجرد المدارسة المعرفية إلى مستوى الممارسة الفطرية.
- الإسهام في وضع لبنة ضمن صياغة المنهج الراشد في تدارس وتنزيل القرآن الكريم.

5- منهجها: سيتم الانطلاق من المنهج الوصفي، لوصف الوضعية المتمثلة في وقوع الناس في العالم بأسره، وخصوصا المسلمون، في مختلف بقاع العالم، في حصار فرضه مرض غريب، ثم إظهار إشكاليتها، المتمثلة في محاولة الكشف عن مضامين النصوص القرآنية انطلاقا من فهمها من خلال ما يحدث في العالم. ثم السعي للكشف عن ملابساتها، والوقوف على سياقاتها السابقة والآنية، وتبيان أن كل ذلك رهينٌ بمعرفة إسهام الواقع في فهمها. وبعد ذلك يتم الاستنجاد بالمنهج التحليلي لتحليل الإشكالية، وتصنيف جزئياتها، وحصرها في كليات تضمها، من أجل إعادة تركيبها، وبنائها، لتمييزها من غيرها، مما سيتم استبعادُهُ منها، ثم انتقاء الحلول على منوالها، فالحل كائن في صلب الإشكالية وليس بعيدا عنها. وستكون المقاربة التحليلية عن طريق تبيين الصلة بين إشكالية تلقي كتاب الله تعالى، وبين الوعود القرآنية المتعددة. ثم الوصول لاقتراح الحل لتطوير عملية فهم القرآن وتفهيمه. وعلى إثرها، ستعرض توصيات يكون الرجاء من استعراضها أن يعمل بها المعنيون بها، من جهة، وتكون بابا للباحثين مفتوحا على تصورات تسهم في تعميق فهم الإشكالية وتعميم البحث فيها وتطوير اقتراح حلول لها، يكون الهدف منها تطوير هذه المنهجية في التلقي والإلقاء، في التعامل مع كتاب الله تعالى. وهذه المقترحات، سيكون بمقدورها الكشف عن العلاقات بين مختلف الإشكاليات، والمشكلات، التي يكون لها ارتباط بينها وبين فهم القرآن وتفهيمه؛ فليست هناك إشكالية متفردة، بل كل إشكالية تتشابك مع غيرها من المشكلات المجتمعية والعلمية.

6- دراسات سابقة:

- المتلقي في الخطاب القرآني، الباحثة حكيمة بوقرومة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، الجزائر، 2010م، وهي دراسة مستوفية وتستحق المطالعة، فقد عرضت للعديد من نماذج المتلقين الذين يتلقون كتاب الله تعالى، وقد يكونون ضمن الفئة التي تتحول من مستوى التلقي إلى مستوى التوجيه والتفهيم.
- التجديد في التفسير في العصر الحديث، مفهومه وضوابطه واتجاهاته، الباحثة دلال بنت كويران بن هويمل البقيلي السلمي: دراسة لنيل شهادة الدكتوراه، 1435ه، 2014م، بالسعودية، وكان من بين أهم منتجاتها: أن التجديد في التفسير هو في جوهره تجديد في الدين؛ ثم كشفت الدراسة عن كون التجديد في التفسير حاجة ملحة لإحياء معاني كتاب الله تعالى، ودعوة لتطبيق تعاليمه، ثم دعت لوضع أصول لعملية التجديد في التفسير.
- التجديد في التفسير، نظرة في المفهوم والضوابط، الدكتور عثمان أحمد عبد الحميد: كتاب سلسلة مجلة الوعي الإسلامي، عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المطبعة العصرية، الكويت، ب. ت.، وقد سطر جملة من الضوابط التي يجب أن يتقيد بها كل من يحاول فعل التجديد في عملية تفسير كتاب الله تعالى.

7- إضافتها العلمية: إن الجانب الذي تسعى هذه الدراسة لبلوغه، تتمثل في ربط مضامين كتاب الله تعالى بكل أحداث الواقع، فما لم تظهر الحكمة منه اليوم، فيقينا ستتكشف الأيام القادمة منه عن حكم عجيبة. خصوصا متى تبين لنا أن استحضار هذا الحصار، والسجن العالمي الذي فرضه هذا الفيروس على أغنياء الناس وفقرائهم، سيجعل مضامين كتاب الله تكشف عن معاني مستجدة.

8- خطتها: المدخل المنهجي؛ مقدمة؛ تحديدات لغوية ومصطلحية؛ تحديد غاية تنزّل القرآن المتمثلة في حماية ابن آدم؛ رسم خارطة طريق لفهم القرآن وتفهيمه؛ استنتاج: قراءة بين الأهداف والفروض.

9- كلمات مفتاحية:

- المصطلح القرآني: ويقصد البحث بالمصطلح القرآني، هو كل مفردة استعملها القرآن الكريم في سياق ومضمون محدد، فأعطاها بذلك معنى جديدا وخاصا، فصارت بذلك مصطلحا قرآنيا، من مثل، الصلاة، الصرح، الأمن، وغيرها، ومن ثمة فلا يقبل إلا المعنى التي أقرها النص القرآني.
- تجديد التفهيم: عملية مستمرة تتوقد بالنظر في واقع الناس وكيفية تصريفهم لمعاشاتهم، مع بعد نظر، وحِدَّة بحث، فالنص القرآني يتجدد تنزلا كما يتجدد معنى ومضمونا، فهو قد نزل لكل الناس ولكل المجتمعات ولكل الأزمنة، فالبقاء على نفس المعنى يحد من فاعليته، بل لا بد من تجديد عملية الفهم كما تتجدد عملية النظر.
- زمن الكورونا: إن الكورونا ليس مقصودا لذاته، ولكنه في موضوعنا هذا مسببا في إثارة الموضوع، خصوصا متى علمنا أن هذا الوباء قد جعل العالم، فعلا، ليس قرية صغيرة، بل حجرة ضيقة، فقد ضاقت الأرض، بما رحبت، حتى لم يعد فيها مجال لأخذ النفس. وعلى هذا الأساس فلن ينشغل البحث بالكلام عن الوباء ولا عن مظاهره، ولكن حضوره كان من باب إظهار 'سبب الورود'.

المبحث التمهيدي: مقاربة المصطلحات المركزية

المطلب الأول: المفهوم المركزي الأول: التفهيم

هي عملية تتم بعد تمام الفهم، بتفهيم الغير ما تم فهمه من فحوى كتاب أو نص. ويتضافر التفهيم مع التأويل: إذ التأويل، في أصله، عملية مقبولة؛ وهو مصطلح قرآني: "التأويل في الأصل الترجيع، وفي الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب والسنة"[1]. واصطلاحا: فهو "رد الشيء إلى الغاية المرادة منه، علما كان أو فعلا"[2]. ومن ثمة: "التأويل ليس ضربا من التخمين أو الإخضاع المتعسف للنص القرآني حتى يساير مفاهيم المفسر وأفكاره أو الاعتناء بالمتشابه من الآيات، إنه صرف الآية إلى ما تحمله من المعاني الموافقة لما قبلها وما بعدها، هو عمل استنباطي تساهم فيه علوم القرآن وتعضّده المفاهيم الأساسية للقرآن، هذا جانب رئيسي أول"[3]. إنه لا يبلغ درجة فهم تأويل القرآن إلا من رسخ في العلم، ممن أعمالهم مدارسة القرآن[4]، فليس بمقدور كل من هب ودب أن يؤول القرآن انطلاقا من 'رغبة' ذاتية، وإلا صار من الذين يبتغون الفتنة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]. إن النص القرآني يحمل في ذاته معياره الذي يحتكم إليه من يتصدى لتفهيمه والعمل به: النص القرآني نفسه، إنه فهم القرآن بالقرآن. والنص المتشابه[5] يحيل على المحكم، ويتم فهمه من خلاله. وإيراد الله للنص المتشابه هو 'تحفيز' للقارئ لبذل المجهود في الفهم عنه تعالى.

المطلب الثاني: المفهوم المركزي الثاني المدارسة:

إن الدلالة اللغوية قد تكشف عن مضامين للمصطلح قد تكون غائبة عن كثير من المتتبعين، فالتدريس، في اللغة، يعود إلى كلمة 'درس': "الدال والراء والسين، أصل واحد يدل على 'خفاء' و'خفض' و'عفاء'؛ فالدرس: الطريق الخفي، درستُ الحَنطة، وغيرها، في سنبلها، إذا 'دُستها'، فهذا محمول على أنها جُعلت تحت الأقدام، كالطريق الذي يُدرس ويُمشى فيه. ودرستُ القرآن وغيره؛ وذلك أن الدَّارِس يتتبع ما كان قرأ، كالسالك للطريق يتتبَّعه..."[6]. "ودَرسَته الريح: محته، إذا تكررت عليه فعفَّته، ودرسه القوم: عفَّوا أثره، ومن المجاز: درس 'الكتاب'، يدرُسه، ويدرِسه، درسا، ودِراسة، ودِراسا، كرَّر قراءته، ودَارسه من ذلك: كأنه عانده، حتى انقاد لحفظه، درس الكتاب يدرُسه درسا: ذلّله بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليه من ذلك. درس الكتاب، ودرَّس غيره: كرره عن حفظ، ودرس الطعام: داسه"[7]. فهذا الجذر اللغوي يدور حول الإخفاء، والدوس بالأرجل، ومراجعة الكتاب حتى درجة حفظه. فالعلاقة لن تكون من جانب الفعل، بل من جانب التفاعل، حيث إن العلاقة تكون من جانب المعرفة لا من جهة العارف أو الباحث عن المعرفة. فالدرس، أي الإخفاء، ستكون المعرفة هي التي يتم درسها حتى تصير معروفة، أي إخفاء عجز المعرفة. فالمدرس سيقوم بالدوس على المعرفة مرارا حتى تصير سهلة بالنسبة للمتعلم، كما يصير إيجاد الحَب بعد أن يتم درسه بالأقدام حتى يسهل تناوله. فكذلك المعرفة ستصير واضحة بعد درسها مرارا بفعل شرح المدرس لتلك المعرفة فيستطيع المتعلم، إثر ذلك، التقاطها وفهمها.

المبحث الأول: مهارة تفهيم القرآن

إن فهم كتاب الله ينطلق من التركيز على مصطلحاته. فلتنظر كيف تحول إطلاق مصطلح من صياغة إلى أخرى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ [الكهف: 77]، ثم تحول إلى صيغة أخرى في موضع آخر: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف: 82][8]، ففي الآية الأولى كانت 'قرية'، ثم تحولت في نفس السورة، إلى 'مدينة'، فكيف يفهم المتلقي ذلك إن عجز المفسر عن إيجاد الرابط الذي على أساسه تحولت الصيغة بناء على 'معيار دقيق'؟.

المطلب الأول: أنشطة عملية التفهيم

وعملية تفهيم كتاب الله تقتضي، أيضا، أن يكون القائم بأمر العملية مدركا لوضعيات الفئات التي سيقوم بتفهيمها بعضا من مرادات الله تعالى. والناس، تختلف ظروفهم، والله عالم بذلك، فأنزل كتابا يخاطبها كلها، إذ يجد كل فرد فيها نفسه. وحديث الله عن سفينة نوح عليه السلام، هو حديث عن سفن متعددة ومتنوعة، وتتخذ أشكالا كثيرة. ومع أحداث 'فيروس كورونا'، تبينت الناس أنهم كلهم صاروا في سفينة واحدة، مما يعني أن يلتزم كل الناس بما يتطلبه العيش في سفينة واحدة؛ فطالب كل واحد غيره بالالتزام بالحظر الصحي، ممن لا يكترثون: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ(42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ(43)﴾ [هود: 41- 43].

المطلب الثاني: الكفاءات الذاتية وعملية التفهيم:

إن الذي يقوم بعملية التفهيم ينطلق في ذلك من خلال كفاءاته الذاتية التي بناها على افتراضات مسبقة، بشكل عفوي أو بتخطيط، مع ربطها بالمعاني الأساسية للنص في خطابه العام، وهو يسعى لتأكيدها بالنص المقصود، وهذا يحدث حتى عند مفسر القرآن الكريم، فهو مسلح بمعارفه الشرعية ومكتسباته المعرفية التي تملَّكها من واقعه ومحيطه وتجاربه.

الفرع الأول: قواعد مؤطرة لعمليتي الفهم والتفهيم

ويضع الأصوليون قواعد، يمكن فهمها من تتبع أقوالهم، في مجال التفسير والتأويل المرتبطين بكتاب الله تعالى، وهذه القواعد متأصلة في قدراتهم، ويمكن جمعها في 'مدى قدرة الناظر في القرآن على فهم خطاب الله تعالى'، ثم 'قدرته على اختيار المعنى المناسب من جملة من المعاني' التي يمكن أن تتوارد على فكره وفهمه، وأخيرا، 'مدى قدرته على تحويل ذلك الفهم إلى عمل'، حتى يكون لفهمه تأثير في الفئة المستهدفة بعملية التفهيم والتفسير[9]، ولا أحد ينظر في كتاب الله لا يستند إلى المنهج الأصولي في البحث في القرآن ودلالاته، وخصوصا عنايتهم بمجال الأوامر القرآنية، وبالضبط مجال الاستفهام الطلبي[10]، وخطابات القرآن في تعاملها مع التوجيه اللطيف في مجال خطابه لابن آدم.

الفرع الثاني: المنهج الأصولي سبيل لتيسير الفهم عن الله:

لن يستطيع الفهم عن مثل قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31][11]، فانظر إلى كيفية تصريف 'أمرٍ ربانيٍ' في صورة 'طلب' كله تودد ورحمة؛ وانظر قمة هذا الخطاب التوددي في قوله تعالى في استهلال سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1]، إنه "يشعر المؤمنين بأنهم منه وإليه، يعاديهم من يعاديه"[12]. ولقد ذهب الأصوليين في تركيز منهجهم للقول بأن الخطاب القرآني لا يمكن أن يكون فيه شيء غير مقصود، كما يستحيل أن يكون قصد الله خلاف لما يفهمه الناس[13].

المطلب الثالث: مرتكزات عملية التفهيم:

الفرع الأول: الكشف عن المعارف المحمولة في النص القرآني:

وعملية التفهيم يكون من فوائدها الرئيسة التركيز على الكشف عن جملة من المعارف التي ورد بها القرآن الكريم وتشمل الجوانب اللصيقة بالإنسان وأولها معرفة المقصود الأساس من خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، وتضم هذه المعرفة جوانب العقيدة والتشريع والتربية. والذي تمكّن من فهم كتاب الله لا بد أن يُثبت بأنه 'فهمه في شموليته'، ولا يمكن أن يظهر ذلك إلا من خلال تفهيم شمولي حتى يؤتي دوره، خصوصا حين نتأكد بأن القرآن الكريم يتميز بوحدة موضوعية سواء في الآية أو السورة أو الكتاب كله. فلا بد أن يتسع نظر المفسر، إذ حين يتعرض لإبليس وإخراجه من الجنة لأنه امتنع عن السجود لآدم، فالعيب ليس في رفض السجود بل المشكلة في الاستكبار والاستعلاء في موطن التقدير، وهو سلوك يجب أن يكون مرفوضا في حياة الإنسان، وتلك هي، بعض، من النظرة الشمولية التي لا بد من توفرها في عملية التفهيم. وتتطلب هذه العملية قدرة على التحليل والتفكيك من أجل إعادة البناء والتركيب، ليتمكن الفرد الطالب لفهم القرآن وتعلمه من استيعاب مقاصد القرآن الأساس.

الفرع الثاني: استحضار النظرة الشمولية:

لا تُستملك إلا بإحاطة بالعلوم الشرعية ذات الارتباط بالقرآن الكريم، وخصوصا الحديث الشريف، باعتباره آلية تفسير وتوسع في فهم كتاب الله تعالى، ثم تَملُّك قواعد علم أصول الفقه باعتباره آلية للتمكن من الوقوف على القواعد الكلية التي تبنى عليها القوانين التنظيمية باعتبارها قواعد مجردة تصلح لفهم القرآن وفهم كل الحياة. كما لا بد من الوقوف على القواعد الفقهية التي تمثل التطبيق للقرآن. وإحاطة المفسر بالسيرة النبوية تسعفه في تجلية عملية تطبيق كتاب الله تعالى. والناظر في كتاب الله عليه أن يستحضر سؤالين خطيرين: الأول: "إن القرآن المجيد قد نزل في بيئة أمية تنتمي إلى الشعوب الأمية، وعلى قلب رسول من الأميين فاستجاب لحاجات تلك المرحلة، فهل يستطيع القرآن أن يعطي البشرية جديدا في هذه المرحلة العالمية الشاملة، وخصائص هذا الواقع المغاير في إشكالياته وفكره؟.. والثاني: "هل ما يتكشف القرآن عنه عبر العصور وفق تطورات المناهج المعرفية والبحثية سوف يكون مناقضا للتفسير وعلوم القرآن، وما استفاد أسلافنا منه من معايير وفقا لسقوفهم المعرفية؟ أو هل أنه يُحتَّم استبدال ما أنتجوا بما أنتجنا؟"[14].

المبحث الثاني: آثار عملية المدارسة القرآنية

إن فعل المدارسة سيكون سبيلا 'عمليا' للرقي بعملية الفهم إلى مهمة التفهيم، إثر مرحلة الاستيعاب. مدارسة كتاب الله تعالى تقود لقناعات دقيقة ورائعة مفادها العديد من النتائج التي تحيي النفس وتُطمئِن القلب. ومن ضمن تلك النتائج، الوعي بأن دعاء الله تعالى بكل إخلاص فإن ذلك الدعاء سيبدِّل القدر بكل يقين، وإلا فاقرأ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)﴾ [الصافات: 139- 144]. فقد كان قدر يونس عليه السلام إذا لم يكن من المسبحين أن يلبث في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وما أنجاه من ذلك المصير إلا أنه لم يفتر عن التسبيح والذكر، فتغير قدره إلى قدر جديد، فسبحان الله القادر على كل شيء. ومن يستعجب من هذا الرأي فليقرأ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39)﴾ [الرعد: 38-39]، فهو المتصرف في الكون فيمحو من قدره ما يشاء، ويثبت منه ما يشاء، بل ولتنظر لرسم كلمة 'يمحوا'، أضاف إليها ألفا، للتأكيد على أن الفعل بيد الله يمكن أن يضيف إليه ما يشاء ويحذف منه ما يريد.

المطلب الأول: فهم وتفهيم المصطلحات القرآنية:

ومن نماذج هذه المصطلحات، مصطلح الحسرة، والتحسر، وتضافر معانيها باختلاف مواطنها.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنقِذُونِ (23) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ (27) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (28) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون (30) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32)﴾ [يس: 20- 32]، وفعلا: يا حسرة على العباد، سواء أكانت الحسرة من كلام الرجل الذي جاء من أقصا المدينة يسعى، أم هي من معنى أن يتحسر المتحسرون على تلك الوضعية التي آل إليها الناس، أو أي معنى آخر، "والحسرة انفعال

نفسي على حال مؤسفة لا يملك الإنسان شيئا حيالها، سوى أن يتحسر وتألم نفسه. والله سبحانه وتعالى- لا يتحسر على العباد ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين! فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم! يا حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها"[15].

ولعل قمة الحسرة هي تلك التي أحسها أول قاتل على وجه الأرض أخاه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)﴾ [المائدة: 27-31]؛ وكيف تكون الحسرة، إن لم تكن في مثل هذا الوضعية، أن يتعلم الإنسان من حيوان، وبعد فوات الأوان. بل انظر إلى حسرة لا يمكن أن تتحقق؛ أنجانا الله وإياكم من تلكم الحالة، التي حكاها الله تعالى في آخر سورة النبأ: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً (38) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (40)﴾ [النبأ: 37-40]. فكيف لا تدفعك هذه الآية إلى مدارسة كتاب الله تعالى والدعوة لها دائما، وأن تكون سلوكا لا يفتر إلا ليتجدد؟ وخصوصا في هذه الفترة العصيبة، فترة السجن التي فرضها علينا فيروس كورونا، وأقمناها بإرادتنا، فهل نتذكر بها سجن يوسف عليه السلام، نفسه، برغبته، أو بسبب ظروفه، لكنه لم يخلد للتحسر ولوم القدر، بل باشر اللجوء والفرار إلى الله، وباشر مدارسة المعرفة التي اكتسبها وعرضها على من كانوا في صحبته في سجنه، يخفف عنهم ظروفهم، فيخفف بذلك عن نفسه ما حل بها.

المطلب الثاني: التفهيم أداة ربط بين العالمين المنظور والمسطور

وإن مدارسة القرآن تقف على أن يتم توجيه الفرد إلى النَّظر نظرة أولى في الكون، الذي يعتبر الكتاب المنظور، نظرة واعية، وليست عفوية، حتى يستوعب دور كل جزء منه في ترابط مع باقي الأجزاء، وأن أي خلل في جزء منه يقود، تدريجيا، إلى الخلل في كل الكون: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191].

وهذا النظر يقود إلى وعي الناظر بضرورة أن يتعلم ليكتشف أشياء كثيرة، متى علمنا أن القرآن دعا للتعلم والقراءة قبل معرفة الله وتوحيده، إذ أول كلمة نزلت من السماء إلى الأرض هي كلمة 'القراءة': ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7)﴾ [العلق: 1-7]. ولأهمية التعليم، بل بوجوبه الوجوب الأقصى، أن الله تعالى حين خلق آدم عليه السلام، كان أول شيء تم الاهتمام به هو 'تعليم الله لآدم الأسماء كلها': ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33)﴾ [البقرة: 31-33]؛ فلم يكن ممكنا أن يعمر آدم الأرض من دون علم ومعرفة وتزكية. والتعليم هو دور الأنبياء والرسل، بل كان أهم دعوة قام بها أبونا إبراهيم عليه السلام، وتحققت الدعوة في سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ

اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

المطلب الثالث: آليات التفيهم والتخاطب

إن أول معطى له الأهمية القصوى مما يتطلب التنبه إليه قبل محاولة فهم كتاب الله، ثم استيعابه، وتفهيمه لعباد الله، حتى يفهموا عنه مراداته، ويلتزموا بقوانينه، ينطلق من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31)﴾ [الحجر: 28-31]؛ فالله سبحانه وتعالى يعلن أنه هو الذي سوى هذا المخلوق الجديد، ثم في موطن آخر يصرح سبحانه بأكثر من ذلك: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ (75)﴾ [ص: 71-75]؛ فالله تعالى 'خلق آدم بيديه'، ومن ثمة فهو ليس مخلوقا يخضع لقانون رباني آخر مفاده: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: 68]، فالمفسر لكتاب الله تعالى مدعو للوعي بهذه القضية الجوهرية، إذ عليها سيفهم كتاب الله الذي أنزله تعالى لهذا المخلوق المنعم والمكرم.

وعملية التفهيم تتطلب اختيار أسلوب الخطاب الذي يناسب مختلف الفئات المستهدفة، إذ ليس هناك أي خطاب بشري واحد لكل الناس، بل لا بد من مراعاة الفروق الفردية، مما يعني اختيار الألفاظ التي تحكي المقصود منها بشكل جلي؛ مع معرفة البيئة التي يخاطبها، بمعرفة الأصناف البشرية التي تعيش فيها، وتمثلاتهم الذهنية حتى يسهل اختيار الأساليب اللغوية التي تلامسهم مجتمعين دون أن يغلب جهة على أخرى:

الفرع الأول: التفسير الموضوعي خطوة في طريق إعادة تفهيم القرآن الكريم

يا من ينشط إلى نصرة كتاب الله تعالى، اعلم أن الله هو الذي ينصرك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38].

إن تناول كتاب الله من خلال مصطلحاته المفهومية، التي لها دلالة معينة، تفتح مغاليق كتاب الله تعالى، فإن كلمةَ 'الصرح' التي وردت في سورة النمل مرتين: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: 44]، قد شرحتْ الكلمتين اللتين نطق بهما فرعون في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: 38]، وفي سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ(36) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ(37)﴾ [غافر: 36-37]؛ فتناولُ القرآنِ من خلال مصطلحاته في موضوعات دقيقة يسهم في عمليتي الفهم والتفهيم. والتفسير الموضوعي المقصود هو القائم على المصطلح القرآني، دون استبعاد 'التفسير الموضوعي' الذي يتناول القرآن من خلال: "الدراسة الموضوعية.. التي تطرح موضوعا من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده"[16]، فهو الوجه الآخر الذي يجعل فهم القرآن يتجه بوجهة يكون فيها المعنى المستفاد من القرآن هو في جوهره وحقيقته 'حلاً' لمشكلات الناس.

الفرع الثاني: مكونات القرآن:

التحفيز على التساؤل والسؤال المستمرين، إذ بغيابهما تنتهي عجائب القرآن وحقائق الإسلام ومعجزات الإيمان، "للوهلة الأولى سيبدو غريبا جدا أن نتصور أن دينا ما يبدأ بطرح التساؤلات، فقد تعودنا جميعا أن تكون الفلسفة هي صاحبة الأسئلة، وأن يكون الدين هو صاحب الأجوبة... فقد عمد الخطاب القرآني إلى استثمار هذا التساؤل وتأصيله في طريقة التفكير الإسلامية، بل إعادة تأسيسه، ليكون المرتكز الأول والنقطة الأولى في تكوين العقل المسلم الناشئ"[17]؛ فقد كان التساؤل، الذي ينقل من الشك إلى اليقين سؤالا نبويا، أصّله أبونا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سبق به منظري الفلسفة، بل وجعله مبدأ دينيا، وحاجة نفسية، وضرورة علمية، وليس مجرد رغبة فردية. غير أن هذا التساؤل الإبراهيمي لم يكن تساؤلا يتأصل ويتأسس على 'تصور مادي'، بل من أجل تقريب دلالة عظمى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(259) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(260)﴾ [البقرة: 259-260]؛ فالصُّورة ربط بين مشهدين: من استعجب من إمكانية 'فعل' الإحياء، دون إنكاره، فكان هو عبرة بنفسه؛ وبين من يريد أن يرفع درجة إيمانه من مستوى علم اليقين إلى مستوى عين اليقين، فأراه الله ذلك، وفي مستوى أدب السؤال كانت لذة الجواب، وهذا يكشفهُ لنا نموذج ثالث من السؤالات: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:143]؛ فكانت قسوة الجواب من شدة وقع السؤال. فالقرآن يدعو للتساؤل الساعي للكشف عن وجوه الكون، لا تتجاوزه لذات المكوِّن تعالى، لكونه آلية لتجاوز التمثلات، وتقويمها، حتى يستقيم مع الحق، بأداة العقل.

ويتكون القرآن من 'البنية الداخلية والبنية الخارجية'، وهذا مما يمكن أن يوسع دائرة الاهتمام بالقرآن الكريم. فبنيته الخارجية ترتبط بترتيب الآيات والسور، وكذا استحضار الجانب الإيقاعي والصوتي الذي يتميز به الجرس القرآني؛ في حين أن البنية الداخلية نربطها بمضامينها، وأسلوبه الحجاجي، وأدواته التي يوظفها في التبيين، أو الإقناع، وأثرها في المتلقي: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]. والبنية الخارجية كان لها التأثير الكبير، ليس فقط على الذين آمنوا، بل على كل من يستمع إليه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27)﴾ [فصلت: 26-27]. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6]، فإن الله يعلم تأثير كتابه في الناس، فما الحكمة من تسميع المشرك الكافر المستأْمَن كتاب الله، إن لم يكن التأثير فيه وتحفيزه على الإيمان بالله تعالى؟

كما يتكون من آيات، وأهمها آيات الأحكام، ولعله من الأكيد القول بأن أولى محاولات التفسير الموضوعي ابتدأت بتفسير آيات الأحكام. ولقد نشأت مدارس ومذاهب من أجل فهم كتاب الله وتفهيمه،

وأنتجت أعمالا لها من القيمة ما لا يمكن إنكار دور أي واحدة منها، حتى التي يمكن اعتبارها في الاتجاه غير الصحيح[18].

الفرع الثالث: ثبات دلالة النص

ولقد أرسى الإمام الشافعي أساسا للتفسير تمثل في تسطير طريقة في تناول هذا النص من الناحية الدلالية، متى علمنا أن النص القرآني له دلالته الثابتة، لكن تعابيره تجعل من ولوج مجال البيان ما يجعل هذا النص 'مطواعا' لمن ملك آلة البيان، وخصوصا من أجل تذليل آيات الأحكام، متى اعتبرنا أن الأحكام القرآنية ما كانت عسيرة على الفهم والتفهيم إلا في تفاصيلها التنظيمية: "ما من لفظ موضوع لمعنى إلا ويجوز التجوُّز فيه، فيراد به ما وضع له، لضرب من الشبه والرابطة إلا فيما استثنيناه، وذلك كلفظ الإنسان والفرس والسماء..."[19]، فهذا الرأي متساهل كثيرا في مرونة النص؛ في حين أن ابن حزم قد شدد في هذا الاتجاه، نافيا 'تعدد المعنى'؛ وهناك من توسط بين المذهبين. وهذا المطلب يسعى لتأكيد أن آيات الأحكام لا تقبل تعدد المعنى، وإن كان الأمر لا يخلو من ذلك في باقي كتاب الله تعالى، وليس ذلك لكونه مذهب الرازي، وكذا الباقلاني، فليس هنا موطن مناقشته، فإن من يعضدنا كثيرون من مثل الجويني والقرافي وابن تيمية وابن القيم وأهمهم الشاطبي، حين ذهب لقطعية العديد من النصوص[20]؛ ويكفي قول الشافعي، حول قطعية بعض النصوص قطعية بيِّنة، فجزم بأن النص، الذي نرومه في هذه الدراسة: "مستغنىً فيه بالتنزيل عن التفسير"[21]. ونؤيد الرأي بكون الخطاب من مصدر واحد هو رب العزة ويستحيل أن يصدر عن الواحد الأحد التناقض: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء: 82]؛ غير أنه يمكن الذهاب، مع من ذهب، بأنه يمكن الوضع في الاعتبار حضور فهم المخاطَب، وعليه فيمكن القول: "دلالة النصوص نوعان: حقيقية وإضافية. فالحقيقية تابعة لقصد 'المتكلم' وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف. والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره وقريحته، وصفاء ذهنه، ومعرفته بالألفاظ ومراتبها، وهذه الدلالة تختلف اختلافا متباينا بحسب تباين السامعين ذلك"[22]. فقول المخاطِب ثابت الدلالة، وربما يكون فهم المخاطَب بحسب قدراته وكفاءاته[23].

الفرع الرابع: سياق النص بين السوابق واللواحق

وقد كان القرآن يختم الآيات التشريعية بمضامين تناسب المطلوب، كما أنه يختمها بما يعتبر 'تذييلا' لتلك الآيات التي تقرر حكما تشريعيا أو تُبيِّنه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)﴾ [البقرة: 179- 185].

المبحث الثالث: آيات القيم

لقد حان الوقت لتصنيف تفسير يستعرض القيم بدل استعراض آيات الأحكام، دون أن يعني أن دور تفسير آيات الأحكام قد ولى، بل هو أس التفسير الموضوعي المنشود، غير أنه يمكن أن تكون آيات الأحكام

المرتبطة بموضوع واحد، وهو مشروع ينتظر من ينهض به، بالإضافة إلى ذلك كله، أن تنهض همم تركز في مشروعها التفسيري تفسير الآيات التي تحمل قيما، ويتم تصنيفها في مواضيع ويتم ترتيب آياتها وفهم هذه من تلك.

المطلب الأول: من عصر المفاهيم إلى عصر القيم

إن العصر الذي نعيشه هو عصر قيم بامتياز، والصراع العالمي حول العولمة هو صراع قيمي حيث إن القوى العظمى تتصرف في القيم كيفما تشاء، إذ صار بإمكانهم تصنيعها وتعليبها وتسليعها وتوجيهها للعالم من أجل تسييرهم وفق الرغبات والحاجات التي تستفيد منها تلك الدول. ويتجلى ذلك بكل قوة من خلال الواقع إذ تجد فئات عريضة من شعوب تلك الدول مدجنة بشكل عجيب، ويتم توجيهها وتحويلها لمجتمع استهلاكي بدرجة غير متصورة. كما أنها توجه أي قيم تريد إلى العالم في شكل منتجات ثقافية من أفلام ومسلسلات وأغاني وغيرها من الوسائل التي يتم توظيفها لتلك الغاية.

من هذا المنطلق أصبح من الحاجة، بل من الضرورة الشرعية والعلمية التصدي لتفهيم كتاب الله من خلال القيم السامية التي يحملها هذا الكتاب. ويتم تبويب تلك القيم في شبكات ويقوم المفسر بتناول تلك القيم في موضوعات مستقلة. ويمكن لهذا المشروع أن يتم في شكل عمل تعاوني بين مجموعة من المفسرين يقتسمون كتاب الله تعالى ويتناولون موضوعاته في تشكيل قيمي، ويمكن تبادل النظر فيها وتقويم تلك المنتجات العلمية وتعميمها في نهاية المهمة.

المطلب الثاني: نماذج القيم القرآنية

إن من أهم القيم التي تناولها كتاب الله تعالى يمكن استبانتها من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ [الكهف: 29]، إنها قيمة 'الحرية' التامة، وأجلاها قيمة الحرية العقائدية. وهذه القيمة صارت هي القيمة العالمية التي توظفها كل القوى من أجل الوصول إلى هدف معين تستبيح به طاقات الناس. لقد تم توظيف هذه القيمة بأشكال مختلفة من أجل القضاء على كل المعتقدات الدينية السليمة، وإشاعة العديد من السلوكات التي يكون من ورائها بيع العديد من المنتجات التي لم يكن بالإمكان بيعها بدون تحويل الحرية إلى فوضى. والقرآن الكريم ضبط الحرية في كل تصرف، فلكل دينه، ولكل معتقده، ولكن شريطة ألا يؤذي أحد غيره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (58)﴾ [الأحزاب: 57-58]. فالتفسير الذي يقوم على موضوع قيمي يكون تأثيره على طالب الفهم تأثيرا بليغا حيث يخاطب فيه فطرته وعفويته: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30]. ومن الممكن لمن يتناول آيات القيم بالدراسة والتحليل والتركيب، ويشكلها في قوائم تنظمها، فلا بد أن ينظر في مقدماتها وفي أواخر تلك الآيات، فلربما كانت بها ما يميزها، أو يجعلها صنوا لآيات الأحكام، فتتذيل بما يجعلها من باب التحبيب فيها، وتيسير الإقبال عليها. فمثلا حين يختم الآية التوجيهية بقول من مثل 'للمتقين'، فإنه يوحي أن السلوك المطلوب والتصرف المحمود ليس من باب الواجب المفروض بل هو من باب الندب المحبوب، إذ من تجشم القيام به قد كان من درجة المتقين الذين يزيدون عن الأفعال المطلوبة من الأعمال المحمودة بغية مزيد من الأجر، كما في آية الوصية. وأنت تجول معي في آيات القيم تجد مثل قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: 11]، حيث يدعو إلى تبني قيمة التريث في الحكم على الأشياء،

والنظر لعواقبها، وكذلك التحذير من قيمة البخل والتحفيز على قيمة الإكرام: ﴿قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ [الإسراء: 100]. وقد حرص القرآن على التنبيه على خاصية خطيرة من خصائص الإنسان: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: 54]؛ فمن المطلوب أن يحرص المتصدي لتفهيم كتاب الله أن يتحرز منها؛ ولعل من المفيد التجول باستمرار في سورة الكهف، فإن القيم التي تناولتها تعدل مشاريع علمية متميزة في التفسير القيمي.

الفرع الأول: أسلوب الخطاب القرآني

إن القرآن الكريم خطاب فريد من نوعه، له مواصفات في مخاطبته للفئات المستهدفة، حيث إن الله تعالى لم يخاطب كل الناس إلا في حالات محدودة، فيخاطب كل فئة بحسب قدراتها ومؤهلاتها وظروفها وبيئاتها، فالقرآن الخالد ميزاته تناسب الخلود. وهذا الأسلوب يتنوع من خطاب خاص وآخر عام.

والقرآن حتى في حال مخاطبته الناس، فهو لا يقصد العالمين كلهم، بل الفئة التي توجه إليها ذلك الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: 168]؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: 1]؛ في عشرين آية في مختلف السور القرآنية. إنك تجد الله يتودد إلى 'كل الناس' حين يخاطبهم، بكلام فيه من الرحمة ما لا يوصف، وهو في ذلك إنما يريدهم أن يتحولوا من الشرك إلى التوحيد، ويريدهم أن يترفعوا عن الظلم، وغيرها من الطلبات التي يوجهها للناس.

في حين أن خطابه تعالى للفئة المؤمنة إنما يُعِدُّهم لتقبل حكم تشريعي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173)﴾ [البقرة: 172-173]؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183].

وكل خطاب، في حد ذاته متْنٌ، له علاقة باللغة التي صدّر بها، والمخاطِب الذي تكلم به وظف له مفردات محددة، سواء أكان واعيا باختياره، أم تمت العملية بشكل عفوي، وهذه 'المفردات' ستصير 'ألفاظا' ذات حمولة دلالية معينة، مفهومة، بشكل من الأشكال، وهذه الدلالة التي صارت معلومة تحمل ضمنها مسلكين معرفيين: المسلك الأول يضم، ضمن مضمونه، مقصدا محددا يروم تحقيقه المخاطِب، ويبتغي التأثير في المخاطَبين؛ والمسلك الثاني، يضم، ضمن حمولته المعرفية، نظاما قيميا محددا، يرتضي المتكلم أن يصل للمخاطَبين ويستوعبوه، ويتمثلوه، فيصير لهم سلوكا عفويا، أو معلوما. والقرآن الكريم هو عبارة عن متن توجه الله به لعباده ليتدبروه، ثم يفهموه، ثم يستوعبوه، ثم يتمثلوه، وإثر ذلك يوجهوه لغيرهم، من خلال القول، وكذا من خلال الممارسة. فكل القرآن يحمل نظاما مقاصديا، ونظاما قيميا. وهذان النظامان يسيران في تناسق، يتجليان من خلال النظم الذي ورد بها القرآن، صياغة، أو صوتا، أو بناء معرفيا. وقد اهتم العلماء بالمقاصد القرآنية، اهتماما متزايدا، في حين أن اهتمامهم بالنظام القيمي القرآني لا زال يطلب من يهتم به، من خلال دراسات موضوعية، وليس من باب العموميات المعرفية. وهذا يتطلب وقتا ومجهودا لبناء منهجية تكشف عن النظام القيمي القرآني، في مواضيع يجمع بينها رابط محكم، كما يربط بينها إطار قيمي عام وجامع. وقد نهج القرآن الكريم في تعامله مع المخاطبين تعاملا يدل على أن مصدره هو رب

العباد، إذ في تسطيره للقوانين التشريعية، يتميز بالمنهجية التدرجية في العرض لكل المواقف والمعارف، فقد ورد: "عن يُوسُفُ بْنُ مَاهَكٍ، قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ، فَقَالَ:... يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، أَرِينِي مُصْحَفَكِ؟ قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ القُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر:46] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ، قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ المُصْحَفَ، فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ"[24]؛ وقد كانت تلك منهجية قرآنية في سائر الأحكام التشريعية، سواء في حال الفرض أو التحريم، أو غيرهما. بل إن كتاب الله يورد الأوامر في صيغ تحبيبية: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 233]؛ فالأمر يفيد الوجوب، ولكن الله يحبب الفعل لعباده كأنه يخبرهم فقط بذلك الفعل.

الفرع الثاني: مقاصد القرآن

إن من أهم مقاصد القرآن تشجيع المخاطبين به إلى التفكر، وذلك فيه من متسع الوقت للمخاطَب حتى ينظر ويتفكر ويفكر ثم يقرر في المطلوب منه. فأساه تقدير الإنسان، ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)﴾ [الأعراف: 174- 176]. بل إن القرآن يتعامل مع المخاطَب بأدب رفيع، فهو يورد له المطلوب في صيغة مفادها: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120]، إن القصة وردت في باب التذكير، تلطفا لذلك المخاطب، فكأنه يَعرِفها، إنما يريد أن يتذكرها.

وضمن هذا التقدير الإنساني فإنه يقدر مللله وكتبه السابقة، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48]. فالقرآن المهيمن على كل الكتب، لم يقلل من شأن أي كتاب أو معتقد سابق، بل حكى الهيمنة بعد ذكر الأهمية للكتاب الذي تم تصديقه، وإيرادُ بعض قوانينه، تشريعا للقادم من الأجيال.

ومن خلال هذين المعطين، فإنه يسطر احترام المعارض والمخالف. إن هذا القرآن تجد بعضَه يوضحُهُ بعضُه، حيث تتبادل مضامينه وألفاظه الأدوار، فقد "اجتمع في أسلوب القرآن الكريم ما يراه البلغاء أوفَى كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة"[25]. وحتى في المحاججة والجدال مع المعارضين والمناقضين، عقيديا، فقد وجه التوجيه الأسمى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 108].

والقرآن، بكل ما سبق، يسعى للكشف عن مقاصده وحكمه؛ فقد كان دائم التعبير عنها في تسطير الأحكام التشريعية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]؛ فعلى المتصدي لتفهيم كتاب الله أن يحرص على كشف الحكم الإلهية من كل تصرف قرآني حتى يقبل عليه المتلقي بكل رغبة وإقبال بغية التنفيذ، إذ غياب الوعي بهذه المقاصد القرآنية، والحكم الربانية، قلل من حرص الناس على تنفيذها، والالتزام بتعاليمها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنْ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220)﴾ [البقرة: 219- 220].

المبحث الرابع: الركيزة المفاهيمية

لقد وظف القرآن الكريم ألفاظا توظيفا متميزا حيث تجد اللفظة تتكرر في القرآن الكريم فتسعف هذه في تفسير وتوضيح أختها في موطن سابق أو لاحق، كما قد تجده في توظيف لفظة الصرح، أو التمييز بين المدينة والقرية، وغيرها من الألفاظ القرآنية التي تحولت بهذا الاستعمال من مجرد 'مفردة' إلى مستوى 'مصطلح'.

المطلب الأول: جوهرية المفهوم القرآني

ولهذا أصبحت قضية 'المفهوم' قضية جوهرية، وخطيرة، في حياة الشعوب، لكون المفهوم يحدد، أولا، نفسه، ويحدد، ثانيا، طبيعة تفكير هذا الشعب أو ذاك؛ كما، من جهة أخرى، أنه يتأثر بثقافة الشعب، وثقافة الأمة تتحدد من خلال المفهوم الذي اختارته لبناء شخصيتها وأفرادها. ومن الضروري التنبه لصياغة القرآن لمفاهيمه ومصطلحاته تنبها دقيقا، إذ هو المرجع في تحدديها: "من لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها، ويخاطبهم بها النبي صلى الله عليه وسلم، وعادتهم في الكلام، حرَّف الكلم عن مواضعه، فإن كثيرا من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعاداتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة، فيظن أن مراد الله ورسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه، ويكون مراد الله ورسوله خلاف ذلك"[26]. وإن كان هذا يعني، ضمن ما يعنيه، أن يتم تقديم ما تم نقله في فهم آية من الآيات، من مأثورات، عن المعاني التي يثبتها علماء اللغة[27]، فإنه من المستحب النظر لمعرفة دلالة تلك المفاهيم والمصطلحات في اليوم الذي تم فيه الفهم والتفهيم، والسعي للجمع بين تلك المضامين والمعاني، أو التقريب بينها، فالقرآن الكريم جاء لكل الناس على مختلف العصور إلى قيام الساعة. والمعنى المقصود هنا، هو السعي لتحديد دلالة اللفظة القرآنية وفق لغة زمان نزولها، ثم البحث عن ما يقرب إليها اليوم، وغدا، في محيط تنزلها، وتكرر تنزلها مستقبلا، حتى يكون النص القرآني مسايرا لكل عصر.

المطلب الثاني: تحديد المفاهيم يقلل الخلافات في الفهم والتفهيم

وما ذلك إلا خشية تحريف الدلالة الأصلية للمصطلح، ولا نخشى التحريف إلا خشية من إشاعة الخلاف وتوسيع رقعته: "إن كثيرا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة، ومعان مشتبهة، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها، ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره، فضلا عن أن يعرف دليله"[28]. فالاحتياط يكون سعيا لربح الجهد في الردود والردود المضادة والتوضيحات وما يتبعها من تلاسن وسب، كما أن تحديد المفاهيم وتوضيح المصطلحات يقلص من حضور الهوى. وقد ذهب ابن حزم للقول في كتابه 'الإحكام في أصول الأحكام'، حيث خصص باباً عن 'الألفاظ الدائرة بين أهل

النظر': "هذا باب خلط فيه كثير ممن تكلم فيه مَعَانِيَهُ، وشبك بين المعاني، وأوقع الأسماء على غير مسمياتها، ومزج بين الحق والباطل، فكثر، لذلك، الشغب والالتباس، وعظمت المضرة، وخفيت الحقائق.."[29]. "لقد جاء النص القرآني، ابتداء، لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر، وأن تقوم عليها حياتهم"[30]، ولم يكن قبل القرآن، أي قبل الإسلام، 'مرجعية' نحاكم القرآن على منوالها، بل مرجعيتنا هي هذا الكتاب ذاته.

المطلب الثالث: تفهيم القرآن يتأسس على بناء نظام مفاهيمي وقيمي منضبط ومترابط

إن الواقع أصبح يفرض علينا بناء نظام مفاهيمي- قيمي[31]، نظرا لسببين، أولهما: غياب هذا النظام أصلا، تفكيرا وليس فقط تنزيلا، ثم ثانيهما، الحملة الغربية لمنع بناء مثل هذ التصور أساسا. ولا بد أن نعي أن العصر الذي نعيشه هو عصر صراع مفاهيمي ومن ثمة صراعا قيميا، وهذا الصراع يتقوى يوما بعد يوم، وهي الحرب المستقبلية، حيث إن تحريف وجهة الناس سينتج الجيل الذي يسهل تسخيره بدون حرب. وهذا يتطلب ضرورة استمرار تعميق العمل بالنظام المفاهيمي-القيمي؛ فلقد كان في تاريخ الفكر الإسلامي ثلة من المجددين والعلماء الذين كانت وظيفتهم هي تدقيق المفاهيم وتصحيحها. فقد تحرى ابن حزم في تحقيق هذه المهمة العسيرة مبتدئا من تدقيق مفاهيم القرآن الكريم، حتى لا يستبيحه كل من يبتغي غاية فئوية أو مذهبية أو تحريفية تدعي أن فهم القرآن متاح لكل الناس؛ ولعل هذا كان من بين أسباب تبنيه المذهب الظاهري، ورفضه القياس، الذي تبناه العديد من الفقهاء الأندلسيين وتوسعوا فيه حتى بلغوا به ما رآه مقبوحا عنده من استحسان وغيره. وفي المشرق الإسلامي وقف أبو حامد الغزالي موقفا صلبا من الفرق الضالة، من باطنية ودهرية وغيرها، فهدم مفاهيمهم وركز بدلا عنها المفاهيم الشرعية مؤسسا بذلك 'الكونية الإسلامية ضدا على الكونية الفكرية'. وقد سار نفس المسير ابن تيمية؛ دون نسيان ابن خلدون، ومن المعاصرين أنور الجندي، فهؤلاء اعتنوا بالمفاهيم، ومن يتصدى لفهم وتفهيم كتاب الله مدعو للبحث بجدية في هذه القضية ذات الحساسية الخطيرة، خصوصا في الصراع المفاهيمي والقيمي الذي يدور في العالم، بشدة في القرن العشرين وما يليه.

المبحث الخامس: آليات المدارسة

والمدارسة حركة من أجل الإنسان باتجاه العمران، فيكون السعي من الإنسان بغية أن يتحقق به العمران الإيجابي، فهي رحلة ليست معكوسة عن رحلة الدكتور فريد الأنصاري: "إن عودتي إلى القرآن؛ مدارسة وتدبرا؛ كشفت لي أنني كمن أمرُّ على كثير من الآيات دون أن أبصرها. نعم؛ لقد قادني التدبر للقرآن العظيم إلى أن أكتشف أن النظر لا يغني عن الإبصار"[32]، بل هي رحلة في طريق من اتجاهين:

المطلب الأول: تحديد صنف المستفيد من عملية التفهيم

من تكلف بالتفهيم، مدعو للتمييز بين فئات الناس الذين يتواصل معهم، فلكل فئة مستوى عقلي، وعلمي، ومعرفي؛ ونمو جسدي، وفكري، فلا بد من مخاطبة الناس على قدر عقولهم[33]. والرسول ﷺ كان يتخير أوقات التفهيم، ثم يختار طرائق تناسب كل المعنِيين، فتارة يتوجه بطريقة السؤال الذي يثير عاصفة ذهنية، وتتنوع الأجوبة من المسؤولين بغية الوصول إلى المقصود، وتارة يجيب على قدر السؤال، وتارة يزيد على القدر المسؤول عنه، وتارة يضرب المثل، وتارة يستخدم الرسم، وغيرها من الطرائق التعليمية:

الفرع الأول: عوام الناس

إن مخاطبتهم تتطلب تبسيطا معرفيا حتى يستطيع المتلقون أن يستوعبوا اللغة، ثم يستوعبون مضامينها، ثم يفهموا المقصود منها، والحِكم التي تشير إليها.

الفرع الثاني: فئة المهتمين والمتعلمين

إن مخاطبة متعلم له نسبة من الوعي بالموضوع الذي يتناوله من يتصدى لتفهيم كتاب الله يسمح بهامش من التوسع في عرض المعارف ذات المنحى التجريدي نسبيا.

الفرع الثالث: فئة المختصين

فللمخاطِب ألا يتحرى لغة معينة، بل يتوسع في المعارف ويدقق في المداخل والمخارج، ويناقش أدق التفاصيل دونما خوف من تعقد معنى أو تعذر الفهم، فالمناقشة تفتح المغاليق.

المطلب الثاني: واقعية القرآن الكريم

إن المجالات التي يفتحها القرآن للبحث فيها متنوعة لا تنتهي، وشهية الباحثين تزداد لتتبع كل ما يستجد من مواضيع، غير أن البحث هنا يركز على خاصية متميزة من خصائص هذا الكتاب الجليل، الذي أنزله رب الأكوان كلها، وتتمثل في كون هذا الكتاب، رغم تبدل الأزمنة والأمكنة والأشخاص، يتميز بالواقعية في أجلى صورها:

الفرع الأول: إعلان خطورة النبوة والتصريح بمسؤولياتها

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5)﴾ [المزمل: 1- 5]. هل هناك من واقعية أكبر من هذه، عندما يعلن القرآن للمتلقي الأول محمد النبي الرسول ﷺ، بأن مهمته عسيرة وخطيرة وثقيلة؟ مع العلم أن الثقل في التعبير القرآني الإلهي، يفيد أنه أثقل من أي ثقيل يعبر عنه التعبير اللفظي الإنساني. هذا الثقل، ليس هو القرآن وحده، وإن كان القرآن هو محوره، فالتكليف بمسؤولية النبوة تكليف ثقيل في حد ذاته، إذ فيه أن تقول لغالبية الناس: إنكم مخطئون، وعليكم أن تتبعوني. وهي بذلك تكشف عن خطورة مهمة التربية والتعليم التي يقوم بها الدعاة والعلماء ورثة الأنبياء.

الفرع الثاني: مراعاة الهواجس النفسية

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(234) وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235)﴾ [البقرة: 234- 235]؛ إنه لا يقتل الخواطر ولا يحاسب عليها، ولا يميت الأحاسيس الذاتية، بل يعتبرها، إنما يسعى لضبطها. وهذا الجانب يراعي كذلك إحساس من يقوم بدور التبليغ بعد النبي وجسامة مهمته، والعقبات التي قد تعرتضه، فيعيها ويستعد لها.

الفرع الثالث: مراعاة الفروق الفردية في الاستيعاب والفهم والتكليف بالأعمال

إن "عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد كتب إلى مالك يحضُّه إلى الانفراد، والعمل، ويرْغَبُ به عن الاجتماع إليه في العلم. فكتب إليه مالك: 'أن الله عز وجل قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم؛ وآخر فتح له في الصدقة، ولم يفتح له في الصيام؛ وآخر فتح له في الجهاد، ولم يفتح له في الصلاة. ونشرُ العلم وتعليمُه من أفضل أعمال البر؛ وقد رضيت بما فتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير. ويجب على كل واحد منا أن يرضى بما قسم له؛ والسلام"[34]. وينكشف ذلك في مواطن كثيرة: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286]. فلا بد من أن يستحضر من يُساعد الناس على فهم القرآن هذا الأساس فلا يكلفهم بما لا يطاق، وبما لم يكلفهم به القرآن.

المطلب الثالث: تجدد معاني القرآن

تجدد المعاني يفرض نفسه في عملية مدارسة كتاب الله تعالى. غير أن هذا المنحى سيرتبط بتعدد المعنى، وليس، فقط، مجرد تجدده. وتعدد المعنى لا ينزل لمستوى إباحة الكلام في كتاب الله بغير علم، أو باتباع الهوى، فيقول من شاء، ما شاء، متى شاء، ويفهمُ من كتاب الله ما يحلو له، ويناسب وضعه، ونفسه. بل هذا التعدد يفرضه لفظ القرآن نفسه، وخصوصا تعدد قراءاته، التي تفتح مجال 'تعدد المعاني'، فقراءةٌ تشرح قراءةً أخرى، وقراءةٌ تكشف عن معنى يكمل ما كشفت عنه قراءة أخرى، وعُدْ إلى فاتحة الكتاب فتجد قراءة تحكي عن كون الله هو الذي يملك يوم الدين، وقراءة أخرى تجعله هو الملك المتوج. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (279)﴾ [البقرة: 278-279]؛ وفي قراءة أخرى: 'فآذَنوا'، فإذا كان في الأولى إذْنٌ بحدوث الحرب على باب الأمر، فهي في القراءة الثانية، قد جاءت بمعنى الإخبار، فالإخبار حدثٌ يدل على الوقوع وليس من باب الاقتراح: "وَقَرَأَ حَمْزَةُ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي غَيْرِ رِوَايَةِ الْبُرْجُمِيِّ، وَابْنِ غَالِبٍ عَنْهُ: فَآذَنُوا، أَمْرٌ مِنْ: آذَنَ الرُّبَاعِيِّ بِمَعْنَى: أَعْلَمَ، مِثْلَ قَوْلِهِ: فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ؛ وَقَرَأَ بَاقِي السَّبْعَةِ: فَأْذَنُوا، أَمْرٌ مِنْ: أَذِنَ، الثُّلَاثِيِّ، مِثْلَ قَوْلِهِ: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ..."[35].

المطلب الرابع: طرائق المدارسة

لا مجال للحديث عن طرائق تربوية، أو تدريسية، دون أن يغيب ذلك من ذهنية المتصدي لعملية التفهيم، إذ عملية التربية حاضرة في مجال التواصل العمودي، والتدريسية حاضرة في مجال التواصل الأفقي:

الفرع الأول: المدارسة الأفقية

وتكون بين الأقران وتقوم بمهمة التداول[36] القرآني، وذلك بتداول المعاني القرآنية ذات الارتباطات بالمجال الاجتماعي في شكل أعمال تدريسية في أدراج المؤتمرات والمنتديات العلمية التي يشترك فيها المفسر بورقة علمية، كما يمكن أن تكون في الموائد المستديرة التي تعقب الملتقيات، أو في العمليات التقويمية للأنشطة العلمية المتخصصة، أو في المحاضرات العلمية.

الفرع الثاني: المدارسة العمودية

وتكون بين المعلم والمتعلم، سواء في التعليم الرسمي في مدرجات الكليات أو مقاعد التدريس بالمدارس، أو في مواطن مخاطبة طالبي العلم في المساجد أو في مواطن أخرى، ويكون المفسر هو المؤطر لكل العمليات لغياب الأنشطة التي يقوم بها المتعلمون كما هو في الجامعات أو المعاهد أو المدارس العتيقة أو الأصيلة.

الفرع الثالث: ملامح المفسر أداة تفهيمية أساس

إن العديد من المفسرين الذين يتولون تفسير كلام الله شفاهة وإلقاء، يتبعون طرائق، تكون في العديد من المواقف سببا يقود لعكس المراد، إذ ينعدم تأثير الملقي في المتلقي، فمن هؤلاء من يبالغ في 'التبسم في وجه إخوانه' من المتلقين وهو يتحدث عن مشاهد ذات أثر خطير، من مثل الحديث عن الأذى الذي تعرض له رسول الله ﷺ في تبليغ الدعوة ونشرها، فينتج عن ذلك 'استهتار' بالدعوة كلها، وتبعاتها، فلا بد أن يعبر

وجه المفهِم لكتاب الله تعالى عن مضامين النص، وكذا عن مشاعره التي تجيش داخله بسبب ما يحكيه، كما أن المفهِم للقرآن كتابة أن يتخير من المفردات ما يعبر عن الموضوع الذي هو بسبب تفهيمه تعبيرا يكاد يكون هو الحقيقة، فالتعبير اللفظي يكاد يقترب من المطلوب، لكن تعبير أسارير الوجه وومضات العين تكشف عن حقيقة ما يعالجه المتكلم.

المبحث السادس: نماذج تقريبية

المطلب الأول: من الانتقام إلى الرحمة، رحلة فهم لغاية تفهيم

إن الانتقام مفهوم خطير غاية في الخطورة، بل هو غاية كل خطورة، ولا يحصل من رب العزة إلا في مواطن محدودة.

فكان الانتقام منه، شديدا، في الدنيا، والآخرة، ولولا رحمة الله به لكان العقاب من أول يومٍ بِنَاءً على علم الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (102)﴾ [الإسراء: 101-102]؛ بل إن الله تعالى يكشف حقيقة تغيب عن الكثيرين: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)﴾ [النمل: 12-14]؛ وتلك عادة أكابر الأمم، مما يتطلب، حال تفهيم كتاب الله، من استحضار هذه الحقائق، حتى يكون المخاطَب قادرا على تصور الحدث، وإدراك مقصده، وتقبله من خلال الوعي بالحكمة منه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:33].

المطلب الثاني: حالة فرعون الذي كان يعلم علم اليقين أن الله حق

الفرع الأول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (131) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (133) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (135) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137)﴾ [الأعراف: 130- 137]؛ فالانتقام لم يكن لمجرد الكفر، بل لنكث العهد، فلا يحتقرن أحد خيانة العهد ونكثه، كما لا بد من إدراك أن عملية الخيانة تلك تكون بناء على علم ويقين، ثم تخطيط مخالف لذلك العلم.

الفرع الثاني: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (69) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ الْعَالَمِينَ (70) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79)﴾ [الحجر: 63- 79]؛ فالانتقام كان من الشدة ما لم يسبق، فالخسف للأرض، حتى تختفي تلك الفئة نهائيا، ويختفي أثرها بالحجارة التي تلت الخسف، وما ذلك إلا لجسامة الخطيئة، حيث غيرت فطرة الإنسان، وحولته لكيان غريب، حيث إن هذه الخطيئة لا تقوم بها حتى البهائم العجماء.

المطلب الثالث: الانتقام ليس غاية قرآنية

إن الانتقام ليس غاية بل نتيجة، فالمفهِّم لكتاب الله عليه أن يتجاوز مصطلحات الانتقام، إلى مصطلحات 'تحبيب الله لعباده': ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:47]؛ بل إن الرحمة هي المقصد الأسمى من خلق الإنسان، وأن الأخطاء طبيعة بشرية، ولا يتم الانتقام إلا بعد استنفاذ كل السبل لإقناع المخاطَبين بالتخلص من تصرفاتهم المشينة. والتجول بين آيات القرآن تجد رحمة عظيمة، وخطاب الله لعباده فيه كل التودد والتحبيب، بل حتى في حال الحديث عن العذاب، يكون الكلام عنه بصيغة الغائب، وحين يخاطب القرآن الخطاب المباشر، لا تغلب فيه إلا الرحمة.

الفرع الأول: التحفيز بدل التيئيس

لا تعذبني مرتين، اكشف لي عن جانب الله الرحيم، ودعني أحبه، فإذا أحببته سمعت منه كل شيء، وتعرفت إليه، وعلمت قوته وجبروته. والحديث عن عذابات النار والقبر، لا تكون هي السائدة، بل يسعى المفهِّم لكتاب الله أن يشيع الأمل في الله تعالى، وأن التوبة مفتوحة دائما، ويستهدف تحبيب الله لعباده لا تخويفهم منه.

الفرع الثاني: زوال البشر وبقاء القيم

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]؛ فمحمد رسول الله ﷺ، سيد الأنبياء والمرسلين، وقمة العزم والثبات، وشفيع الأمة يوم الزحام، وصاحب المقام المحمود، مات، فلا خلود لأحد، ولا يستحق، إذن، أي أحد التقديس، ولو كان نبيا، ولو كان معجزة، ولو كان عيسى بن مريم.

الفرع الثالث: زمن الكورونا زمن محفز على تكرار النظر في كتاب الله

يقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِيناً فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 3]؛ إنه 'اليوم'، وفي هذا اليوم بالذات، تتحدد المقاييس والمعايير والمؤشرات والمقدمات والنهايات، اليوم، إما أن يسود القِسم الأول، وهو 'طمع الكفار' في تحريف الأمة المسلمة عن طريقها وتضليلها والتفوق في ذلك، وإما أن يكون وضوحُ الدين وجلاء الالتزام، إنه اليوم، إما أن يسود الضلال أو يسود الهدى. ولكي يغلب أحدهما، لا بد أن يَضمُر الثاني. واليوم، هو اليوم، أي الآن، وليس غدا ولا البارحة، فإما أن تشمر الأمة عن ساعد الجد، اليوم، فيكون 'لها' اليوم والغد والأمس، وإما أن تزول، فتصير 'هي' اليوم والغد والأمس، وتكون هي 'العبرة'.

إن النفس، الفاسدة، متى 'سادت' حجبت العقل، ومنعته من إثارة الفطرة؛ ولكن متى استجمع المرء إرادته واستدعى 'عقله'، ساد العقل وانبعثت الفطرة من جديد 'فيُبصِر' حينها الحقَّ، وحينها بالضبط تستطيع الفطرة أن تصحح ما فسد من النفس، هذه النفس التي تتحول، حينها، من الفساد إلى الصلاح؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ

زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)﴾ [الشمس: 9-10]: "والفِطْرِيَّةُ دائرة من حيث المنهج على تلقي رسالات القرآن، من خلال تلقي آياته كلمةً كلمةً، ومكابدة حقائقه الإيمانية مَنْـزِلَةً مَنْـزِلَةً، إذ لا تَخَلُّقَ للنفس إلا بمعاناة! ولا تخلص لها من أهوائها إلا بمجاهدة! فالقرآن هو خطاب الفطرة، من حيث هي راجعة إلى 'إقامة الوجه للدين'، "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ"؛[الروم:30]. وقد كان ذلك، منذ كان، بتلقي آيات القرآن، وما تجدد قط في التاريخ إلا بتجديد التلقي لها، بناءً وتربيةً وتثبيتاً، على مُكْثٍ من الزمان.."[37]. وإن زمن الكورونا[38] يتيح لنا فرصة جديدة للعودة إلى القرآن بنظرة جديدة، فقد فسحت لنا فرصة المكوث في البيت لمدة طويلة، فيتجدد النظر كل يوم في هذا الكتاب، خصوصا أننا اضطررنا للعودة لله طول الوقت دعاء له برفع الوباء ودفع البلاء.

الخاتمة:

1- **النتائج**:

- عملية التفهيم عملية معقدة تحتاج لتملك جملة من الآليات لإنجاح العملية.
- النظرة الشمولية تنتج عن عملية تدبرية مرتبطة بالفهم عن الواقع.
- مدارسة القرآن تجعل عمليتي الفهم والتفهيم مترابطتين ومتعاونتين في تحويل الفهم عن الله إلى ممارسة سلوكية.
- زمن الكورونا أفاد الله به الناس لو يدركون، فقد يكون الواعظ الذي يصيح بهم صباح مساء للعودة إلى الله تعالى، والتوبة إليه.

2- **التوصيات**:

جعل مادة التفسير وتعليم منهجية التفسير وطرائق تعليمه مادة أساسية في جميع مؤسسات التعليم العالي والجامعي المرتبط بالدراسات الإسلامية.

المصادر والمراجع:

1- الدكتور جاسم سلطان: أنا والقرآن، نحو فهم حضاري للقرآن (رقم 2)، الشركة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة1، 2015م.

2- يونس صوالحي: إشكالية اليقين في الفكر الأصولي، مجلة التجديد، العدد15، يناير 2004م.

3- شمس الدين ابن القيم: إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة، دون طبعة، 1418ه، 1997م.

4- احميدة النيفر: الإنسان والقرآن وجها لوجه (التفاسير القرآنية المعاصرة-قراءة في المنهج)، دار الفكر، دمشق، 2000م.

5- الدكتور فريد الأنصاري: بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار الطريق، دار السلام، القاهرة، الطبعة1، 1430ه، 2009م.

6- الدكتور أحمد خيري العمري: البوصلة القرآنية، إبحار مختلف بحثا عن خريطة للنهضة، دار الفكر، دمشق، الطبعة5، 1432ه، 2011م.

7- صلاح عبد الفتاح الخالدي: التفسير والتأويل في القرآن: دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1416ه، 1996م.

8- الإمام محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة1، 1423ه، 2002م.

9- محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، شرح عبد الفتاح طبارة، دار النفائس، بيروت، الطبعة1، 1419ه، 1999م.

10- محمد يونس علي: علم التخاطب الإسلامي، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة1، 2006م.

11- أبو بكر السجستاني: غريب القرآن المسمى 'نزهة القلوب'، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1990م.

12- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة 32، 1432ه، 2003م.

13- فخر الدين الرازي: الكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، الطبعة1، 1413ه، 1992م.
14- الدكتور طه جابر العلواني: لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة1، 1427ه، شتنبر 2006م.
15- جمال الدين بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ب.ت..
16- عبد الحليم ابن تيمية: مجموع الفتاوى، مكتبة المعارف، المغرب، طبعة 1400ه.
17- الدكتور جمعة ضميرية: المصطلح القرآني منهج وتطبيق، بحث مقدم لمؤتمر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، واقع وآفاق، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، بجامعة الشارقة، في 11-1431/05/12ه، الموافق 25-2010/04/26م.
18- الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ب.ت..
19- أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399ه، 1979م.
20- الرَّاغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، 1992م.
21- باقر الصدر: مقدمات في التفسير الموضوعي، دار التوجيه الإسلامي، بيروت، الطبعة1، 1400ه، 1980م.
22- إبراهيم السامرائي: من أساليب القرآن، دار الفرقان، عمان، 1407ه، 1987م.
23- عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، 2001م.
24- أبو الوليد الباجي: كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج: تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 2001م.
25- إدريس حمادي: المنهج الأصولي في فقه الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة1، 1998م.
26- الدكتور محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن: عناية عبد الحميد الدخاخيني، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، 1421ه، 2000م.
27- الدكتور فريد الأنصاري: هذه رسالات القرآن فمن يتلقاها، دار السلام، القاهرة، الطبعة3، 1435ه، 2014م.

الهوامش:

[1]- الجرجاني: التعريفات، ص46، المصطلح 392.
[2]- صلاح عبد الفتاح الخالدي: التفسير والتأويل في القرآن، ص33.
[3]- احميدة النيفر: الإنسان والقرآن وجها لوجه، ص148.
[4]- محمد السجستاني: غريب القرآن، ص95.
[5]- ولا يدعيّن مدّع أن من يقوم بعملية التأويل 'يستخدم عقله' في حال بلوغه للمعنى المنحرف، بل العقل يوصل للمعنى الدقيق، واستخدامه الاستخدام الصحيح لا يقود إلا إلى خير، قطعا، وما يتم التوصل إليه من ضلال وانحراف فإنما هو، يقينا، بطغيان الهوى والنفس؛ العقل من ذلك براء؛ إذ ما ورد قط قدح للعقل في القرآن أبدا، بل ورد دوما بصيغة 'الفعلية' المفيدة للعمل المتواصل، وورد بالمدح على نتائجه. والعقل أفضل ما ميز المخلوق من غيره، وهو أساس التفضيل، فكل إنسان له عقله، أحسن توظيفه أو عجز عنه، فتلك مشكلته نفسه.
[6]- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 268/2، بتصرف.
[7]- ابن منظور: لسان العرب، ج16، باب (د ر س)، بتصرف.
[8]- ولا بأس من توضيح المنهجية التي يقترحها القرآن لفهم القرآن، فقد ذهب الذين اهتموا بقصة العبد الصالح مع موسى عليهما السلام، فزعموا أن العلم الذي عرضه العبد الصالح على موسى هو من علم الغيب. أقول: لا فائدة من تعليم موسى الغيب، فالغيب بيد الله تعالى، وما كان ليتفضل أحد على أحد بكونه يعلم الغيب: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179]؛ ولا لوم على موسى بجهله بالغيب، ولكن الرجل الصالح جاء ليعلم موسى كيفية تعلم العلم ومنهجية الفهم عن الله تعالى، وإلا لماذا اختار الرجل الصالح تلك المشاهد الثلاث بعينها؟ ولماذا لم يختر غيرها؟ فقد اختار الرجل الصالح مشهد ركوب السفينة وخرقها، فإنما تذكيرا لموسى الذي خشي الغرق، لو تذكر، يوم رَمَتْه أمه في اليم وكان لا قوة له ليدفع عن نفسه الغرق، واختار قتل الغلام فإنه تذكير لموسى يوم قتل المصري، واختيار

الغلامين وإقامة الجدار لهما من دون مقابل، هو تذكير لموسى كيف قدم خدمته للفتاتين بدون أجر، فلعل هذا هو بعض المقصود من لقاء موسى بالرجل الصالح.

[9]- إدريس حمادي: المنهج الأصولي في فقه الخطاب، ص 48-49، بتصرف.

[10]- إدريس حمادي، م. س، ص72.

[11]- يمكن الرجوع إلى إبراهيم السامرائي: من أساليب القرآن، ص41، وعبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، 188/1.

[12]- سيد قطب: في ظلال القرآن، 3540/6.

[13]- محمد يونس علي: علم التخاطب الإسلامي، ص 75- 76.

[14]- الدكتور طه جابر العلواني: لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، ص9. أقول: وهي أسئلة نثيرها ليقف عندها من يتولى تفهيم كتاب الله، وليست من ضمن الأسئلة الإشكالية التي يحاول الموضوع الإجابة عنها.

[15]- في ظلال القرآن، 2967/5.

[16]- محمد باقر الصدر: مقدمات في التفسير الموضوعي، ص17.

[17]- الدكتور أحمد خيري العمري: البوصلة القرآنية، ص 51، 53.

[18]- من مثل المجهود 'الحداثي' في فهم القرآن الكريم، ولعل الباحث هنا، لا يقصد الحداثة المعاصرة، بل لكل عصر حداثيوه وحداثته، وقد فهم أولئك كتاب الله بطرائق غير معهودة، كما يفعل الحداثيون الجدد.

[19]- فخر الدين الرازي: الكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل، ص34.

[20]- يمكن الرجوع إلى الإمام الشاطبي: الموافقات، 670/4.

[21]- محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، ص31.

[22]- شمس الدين ابن القيم: إعلام الموقعين عن رب العالمين، 392/1.

[23]- يمكن الرجوع إلى يونس صوالحي: إشكالية اليقين في الفكر الأصولي، مجلة التجديد، العدد 15، يناير 2004م، ص81.

[24]- البخاري: الجامع الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، حديث 4993.

[25]- عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص148، بتصرف.

[26]- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، 243/1.

[27]- الدكتور عثمان ضميرية: المصطلح القرآني منهج وتطبيق، ص3.

[28]- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، 114/12.

[29]- أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، 34/1، وفي 10/1-14.

[30]- جمعة ضميرية، ص 7.

[31]- ليس يكتفى في هذا أن يدركه بعض من آحاد الناس، بل لا بد أن يصير هما عند أكثرهم، ونقصد بذلك نظاما مفاهيميا قيميا، يربط بين المفهوم والقيمة برباط جدلي.

[32]- الدكتور فريد الأنصاري: بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار الطريق، ص20.

[33]- "وَقَالَ عَلِيٌّ: "حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ"؛ أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، تعليقا، كتاب العلم، باب بَابُ مَنْ خَصَّ بِالعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، كَرَاهِيَةَ أَنْ لاَ يَفْهَمُوا، ح 127.

[34]- ابن عبد البر النمري: التمهيد، 185/7.

[35]- البحر المحيط، 714/2.

[36]- فريد الأنصاري: هذه رسالات القرآن فمن يتلقاها، ص11، وقد تحدث هو عن التداول الاجتماعي للقرآن، وهنا نتحدث عن التداول الإنساني، أي التعامل بين الناس فيما بينهم.

[37]- الفطرية، ص 3.

[38]- فيروس الكورونا، فيروس حفظ اسمه كل الناس بدون استثناء، في القرن 15هـ- 21م، حتى أن الناس قد يتخذونه تاريخا يؤرخون به العديد من حوادث حياتهم، وتسميته بالكورونا، هي ترجمة لمفردة 'Courronne'، أي التاج، فهذا فيروس له تاج، أي متوّج، فانظر وافهم واستوعب.